

البَابُ الْأَوَّلُ

الرجل

« أقبلوا أيها الفيلق المبارك ، يا شباب الأيام
التي لم ينقُط عنها عقد الزمان بعد ، أقبلوا
كالفجر الطالع وأملوا آفاق الورد بالنور »
أترىه

obeikandi.com

أقبل السيد في تودة ورزانة ، طويل القامة ، معتدل السميت عظيم الهامة ، حسن الطلعة واللحية ، تملوه سمرة ، في وجهه أثر من السجود ، لا يلتفت إذا مشى بمئة أو يسرة ، يצוע المسك من أردانه على القرب وعلى البعد حتى ليشتع الأرج إذا خرج من داره ، فتعرف أنه القادم إليك قبل أن تراه .

فإذا طالعك ودنا منك رأيت رجلا لباساً عليه بزة فاخرة تباهى بدوق صاحبها في قماشها وطرازها ، كأن قمأشاً تخير لنفسه أحسن ما لديه ، فاجتمع ذوق المشتري وذوق البائع على ذلك الوجه المشرق ، تملوه قلنسوة طويلة سوداء ، رداؤه وقميصه بأربعمائة درهم ، في زمن كانت فيه ثمانية أرتال سمن بدرهم ، والزيت ستة عتشر رطلا بدرهم ، والعسل عشرة أرتال بدرهم ، ولحم الغنم ستون رطلا بدرهم ، ولحم البقر تسعون رطلا بدرهم . بل الكيش بدرهم . . !

ومن جبة سنجاب إلى جبة ثعلب يصل فيها ، إلى جبة فنك (نوع من جراء الثعلب التركي) في زمن لم يك يلبس الفنك فيه إلا الأقيال والدهاقين والسروات ، إذا ألفت فيه أو فيها قبله رجلا يلبس رداء بألف فهو ابن عباس أو من على شاكله ابن عباس : ابن عم النبي ، ونائب أمير المؤمنين على ، والجد الأعلى لهارون الرشيد . هذا السيد الذي يتم مظهره عن المقام الرفيع ، ينبثق مخبره عن مقام في قمة الملأ الأعلى من المخلصين ، مجلس هو الرقاربعينه ، وفؤاد جسور هو الشجاعة في عنفوانها ، وجنان ثابت لا يطيش لدى القارعة . إذا سمع اللغو أعرض عنه ، هيوياً لا يتكلم إلا جواباً ، حتى إذا دعت إلى الحديث دواعيه افترت شفتاه عن ثنيتين ناتنتين ثم انبثق النبع سلسلا من سلسل ، كأن ملكاً من الملائكة يوحى إليه ! مضرب المثل في وفائه ونداه ، وبسطه وإيناسه . وحده على أعدائه وأوليائه . لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله فما عند الله خير من البيع والتجارة : رزقه ربه رزقاً حسناً فجعله كله زلي لله وقربى ، فثبت الله فؤاده واستخلصه لنفسه ، فجعله للناس آية في الدنيا وفي الدين .

فن ذلك الذى هو كل ذلك . . ؟

إنه النعمان بن ثابت المكنى بأبي حنيفة . الذى يتبين عقله من منطقته ومشيته ، حديث العراق كله والشام والحجاز ومصر . تتردد عباراته إلى جوار أساطين المسجد الجامع فى الكوفة ، فتتردد أصدائها فى المسجد الحرام بالمدينة ، وفى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وفى البيت الحرام بمكة ، وفى جامع عمرو بالفسطاط . يعرف العامة عنه أنه رجل عظيم يصنع العظام ولا يصطنعه الخلفاء ولا الأمراء ، فإذا ذهب إلى المسجد انجفل الحضور إليه يلتمسون وقع الدر من فيه . يطالعهم كل آن بجلائل العلم الذى ينحني له الأفتاذ من العلماء . ولوأتيح للناس أن يروا ما أراه الله للأجيال من بعدهم لشهدوا رجلا - بعد رسول الله وبضعة من صحبه - هو أخذ الرجال فى تاريخ الإسلام بما مكن للشريعة السمحة من أسباب التعميم والانتشار ، فظلت كما أنزلها الله عصرية فى كل عصر ومصر . وغدا الدستور الشرعى فى أحدث الأمم الإسلامية حضارة يتحصل فى كلمة يسيرة المبني كبيرة المعنى هى : « أرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة » ، الرجل الذى أعلن الحرية فى كل مكان وفى كل زمان ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فى التجارة وفى الملك . وفى التصرفات وفى حقوق النساء ، وفى حقوق الرعية . حرية وتسامح فى كل شىء بسموان باسمه فى معارج الخلود . يقاوم صاحبهما طغيان الشرطى وطغيان الأمير وطغيان الخليفة وطغيان التقاليد وطغيان التعصب . ولا تنال منه الهزاهز ولا الفتن وينشئ مدرسة الرأى فى الإسلام لتكون أم الفقه الإسلامى ومنبهه على مر الدهور .

كان فى طولوا فيه سمرة منحدره إليه من وسط آسيا من أصلاب أجداده فى الأفغان - فلقد ولد فى سنة ٨٠ للهجرة وكان أبوه وجده من موالى بنى تيم . فهو باسمه سمي ملك من الملوك فى العراق «النعمان بن المنذر» وهو بمولده مولى من الموالى ، لم يتلق العلم فى مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج فى مدرسة الدنيا . وكانت الدنيا فى ذلك الزمان والمكان أحفل ما تكون بالرجال والأعمال . كان بنو أمية فى قمة المجد فى حكم عبد الملك بن مروان وكانت الكوفة كأقوى مستعر ، وكان أمير العراق فى طفولة النعمان الحجاج بن يوسف الثقفى ، رجلا ما يزال اسمه

يجرى في التاريخ العربي بما يجرى به اسم نبرون في التاريخ الغربي . فالنعمان لم يسلم في بواكير حياته ليلة واحدة ولانهاراً دون أن تصطك مسامعه بأحاديث هذا الطاغوت الناشبة برائته في أعناق جبرته وعشيرته . يذبح أبناءهم ويستحجي نساءهم في العراق عامة والكوفة خاصة - وحمل الطاغية في عنقه دم العلماء فيما حمل من دماء الشهداء فلم يتردد أن يقتل شهيداً في سنة ٩٥ « مات . . ما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى علمه » هو سعيد بن جبير . ومن بعد ذلك بعام في سنة ٩٦ مات أستاذ العراق إبراهيم النخعي مخفياً عن عيونه . . . !

ولما يقع القى المهوب كان الحجاج جبار الأرض قد قبضه إليه جبار السماء . فرحل إلى الدار الآخرة مخلفاً في الدار القانية أحاديث مآسيه .

لاحت على الحدت الناشئ مخائل النجابة وتعارفها الناس حتى بلغ حديثها قاضي الكوفة وزعيم محدثيها في عصره الإمام الشعبي . فلما مر به يوماً دعاه قائلاً : إلى من تختلف ! ؟ قال : « أختلف إلى السوق » وسمى له أستاذه في السوق . قال الشعبي « لم أعن الاختلاف إلى السوق بل عنيت الاختلاف إلى العلماء » قال : « إني قليل . الاختلاف إليهم » قال الشعبي : « عليك بالنظر في العلم ، وبجالة العلماء ، فإني أرى فيك يقظة وحركة » .

ووقع في قلبه من قوله وترك الاختلاف إلى السوق وأخذ في العلم منذ حدثته الباكرة . بدأ النعمان يدرس علم الكلام وهو علم التوحيد والجدال في العقائد والأمور الدينية كافة . كالأنبياء وما يجب أن يكونوا عليه ، والجبر والاختيار ، وإن شئت فقل إنه علم التشريح الفكري للمسائل المسلمة لإنكارها أو إقرارها بالدليل العقلي .

وكان العراق إقليمياً متوزعاً يدفع كل شيء فيه إلى شبوب الخواطر . وفي الطبيعة البشرية اتجاه غريزي للدفاع عن النفس يدفعها إلى الثورة على العسف ، مواجهة إن استطاعت ، ومن حواله إذا هي لم تستطع ، فتفرغ شحنتها من الحماسة في اتجاهات يظهر بادي الرأي أنها لا تمت بسبب إلى الحرب المشبوبة على الطغيان ، لكنها في الواقع كفروع النهر ، تتلاقى حيث المجرى العريض يحمل الفكرة الثائرة كما يحمل الزورق التيار .

ولقد يظهر من ذلك أن الإقبال على الجدال إنما هو في الواقع إقبال على النضال .
 إقبال المفكر بطبيعته ، المتزن بفطرته ، لم تمسه همزات الفن ولم يفيض في الخلافات
 العصبية أو المذهبية ولم يقارف الزلغ بأن يقارب السلطان ، وإنما نزل إلى معارك العلم واستقام
 على طريقته طيلة حياته في بلد كانت السياسة فيه هي الحيز اليومي يطعمه كل كوفي .
 وسرى من بعد أثر هذا التعليم الأول حين راح في كهولته يصدع برأيه في
 شجاعة دونها شجاعة السيوف .

قالوا رأى النعمان في حدائته من الصحابة ثمانية رجال وامرأة . وقيل خمسة
 وامرأة وقيل خمسة وامرأتين - منهم أنس بن مالك - وإنه سمع منه حديث :
 « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وحديث : « الدال على الخير كفاعله »
 وحديث « إن الله تعالى يحب لإغاثة اللهفان » . وقالوا إنه لم يسمع من الصحابة أحداً ،
 وإنما تمحضت حدائته لدراسة « الكلام » .

لم يدع فيض الفتوة النعمان على حاله بل دفعه إلى الأسفار في سبيل العلم ،
 فكان يرحل بين البصرة والكوفة حتى بلغ في « الكلام » مبلغاً يشار إليه فيه بالبنان أو كما
 قال : « كنت أعطيت جدلاً في الكلام ، وأصحاب الأهواء في البصرة كثير ،
 فدخلتها نيفاً وعشرين مرة وربما أقيمت بها سنة أو أكثر أو أقل ظناً أن علم الكلام
 أجل العلوم » . لكن ما ركب فيه من عقل عملي كان حقيقاً أن يغير مجراه وأن
 يهديه إلى طريقته المثلى . وللمتجادلين أغلوطات تتجافى مع القصد والنصفة ،
 وخلق بمثله أن ينصرف إلى ما ينفع الناس في هجر المتكلمين إلى الفقهاء أو كما قال :
 « فلما مضى مدة من عمرى تفكرت وقلت السلف كانوا أعلم بالحقائق ولم ينتصبوا
 مجادلين . وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلّموا وتعلموا وتناظروا عليه فتركت
 الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيماهم سيما الصالحين قاسية
 قلوبهم غليظة أفئدتهم . . . » .

كان فتي ذواقة يختار من كل شيء أحسنه . وما دام قد تخير الدرس فقد كان
 عليه أن يختار المدرس . وليس إذن إلا الحلقة المجاورة لأنها أكبر الحلق ، وأستاذها
 أكبر الأساتذة : أبو إسماعيل حماد بن سليمان العكلى الكوفي الأشعري الذي يعقد
 جلساته في المسجد الجامع .

قال له حماد أن رآه : « ما جاء بك ؟ » قال : « تعلم العلم » قال : « تعلم كل يوم ثلاث مسائل » .

وانخرط في سلك التلاميذ ، يحفظ مسائله ، ويعيدها في الغداة فيخطئ الحفاظ ويصيب هو ، ويسكت التلاميذ ويسأل هو . ويلح في الجدل حتى ليحمر وجه حماد . لكن حماداً يدرك مواهب تلميذه من عمق أسئلته ومن صلته بالله . قام يوماً من مجلسه فقال حماد لجاره : « هذا على ما ترى منه ، يقوم الليل كله ويحييه . . . » .

وقال أبو حنيفة عن نفسه فيما بعد : « كنت أكثر السؤال فر بما تبرم مني . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري » .

لم يلبث إلا قليلاً حتى أحس حماد أنه يزحم الحلقة كلها بوجوده ، فأمر بأن يجلس بإزائه . وطفقا يجلسان لنفسيهما هذه الجلسة عشر سنوات متتابعات والتلاميذ عاكفون بالمسجد وأبو حنيفة أمثلهم طريقة ، يحظى من الشيخ بكفء زاخر من الرعاية ، فنضجت مداركه وعلا اسمه وتوثقت بينهما العرى حتى إن ابن حماد ليسأل أباه بعد غيبة طويلة عن الكوفة إلى أي الأشياء كان أشوق ؟ وكان للسائل طفل وليد فتوقع أن يكون أقرب الناس إلى قلب الجده هو الحفيد . لكنه أجابه : إلى أبي حنيفة ولو أمكنني ألا أرفع الطرف عنه لفعلت .

وحدثت التلميذ نفسه في نحو الثلاثين من عمره أنه أرقى حظاً من المعرفة وأنه يستطيع أن يؤقن الناس مما فتح الله عليه . فخرج يوماً بالعشى تنازعه نفسه طالب الرياسة ، ويم شطر المسجد وأوى إلى ركن بعيد عن حلقة الشيخ يؤلف لنفسه حلقة أخرى . فلم يكده يخل حتى رأى أستاذه كواسطة العقد في حلقاته ، فهاجته الذكرى . ولم تطب نفسه أن يترك ذلك الأستاذ العظيم الذي قال عنه إبراهيم النخعي إذ سئل عن خلف بعده للناس . إنه خلف حماداً للناس . فكيف يترك النعمان حماداً ؟

كان حماد آية في للزهة والورع يفطر كل ليلة في شهر رمضان خمسين إنساناً فإذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوباً ثوباً . . .

وانصرف الفتى كاسف البال منكسراً ولكنه كان منتصباً . إذ انتشل نفسه من غمرات الطموح ليعاود دراساته في دأب وتعمق وحماسة زادت بسطة في العلم وسعة في الفهم . حتى إذا نعى إلى حماد بعض أهله بالبصرة عن مال لا وارث له دونه ، رحل إلى البصرة وأتاب أبا حنيفة في أن يجلس مكانه .

وأقبل الناس على الشيخ - الصغير - يستفتونه في أشياء لم يحفظها عن الشيخ الكبير ، وحانت الفرصة وأخذ يجيب ويجيب ، واستن سنة جديدة أرادها لنفسه وأراد الله أن تكون للدنيا ، وللإسلام : تلك أنه دون إجاباته ليعرضها على أستاذه إثر عودته . فلما راجعها حماد أقر منها أربعين وأنكر عشرين ، وبدأ الفتى يستحب التدوين ، وبدأ فقه الجمهور الإسلامي يعرفه معه ، وآنس التلميذ من نفسه ضعفاً إذ منعه الحياء العلمي أن يعتد بأنه أصاب ضعفى ما أخطأ ، وتعاقب عليه الجديدان في حلقة حماد ، وهو يأخذ نفسه بالاستبحار في العلم وفي الدين ، واشتملت عليه عناية الله تتعهدته تعهد من قدرت عليهم أن يحملوا أمانة الفكر . ودار الفلك دورات وانسلخت سنوات ثمان لم يكد يترك فيهن أستاذه يوماً ولا بعض يوم . بل إن كثيراً من الدروس كان يشغله بياض النهار وزلفاً من الليل .

* كان يمهر مع جماعة من أصحابه في دار حماد يتدارسون ، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل فكانت العلامة بين حماد وبين أصحابه أن يصيح الديك فإذا صاح حماد فينفرط عقد الجماعة . ويقول أبو حنيفة : « يالك من ديك قبحك الله قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل » .

كان يجلس مع حماد ولكنه كان يفكر مع نفسه : وبلغ به استقلاله . ما بلغ بأستاذه جلاله ، أنه لم يكن يجد في مخالفته له حرجاً . خرج معه مرة يشيع جنازة فسأل رجل حماداً : إنى على دابة سيور وقد غابت الشمس ولست على الوضوء . قال له : تيمم لكن الرجل سأل أبا حنيفة فقال : سر وانتظر غيبوبة الشفق ، فإذا خشيت ذلك فتيمم وصل ، وسار الرجل فصادفه الماء فتوضأ .

وهكذا لم يجز للرجل أن يتيمم ما دام يغلب على الظن وجود الماء ، وفي الوقت سعة ، طلباً للكمال بالطهارة الأصلية .

وهي أول فتوى خالف فيها أستاذه .

اكتملت دراسات الفتى المكتمل، وبلغ نضجه العلمي، واستوى في سن الأربعين - سن الرسل - فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته وهيأت له السماء كل الظروف .
ففي سنة ١٢٠ للهجرة صعدت روح حماد إلى بارئها واجتمع الناس إلى ابنه إسماعيل ، وكان أغلب علم إسماعيل في التاريخ والأدب ، فلم يلق الناس عنده كبير غناء. فأخذ المجلس موسى بن كثير وكانوا يحملونه وإن لم يكن فارهاً في الفقه ، لأنه لقي المشايخ الكبار ، ثم خرج حاجباً فجلس الناس إلى أبي بكر النهشلي فأبى فسألوا أبا بردة فأبى ، ونحلي بين المجلس وبين أبي حنيفة ، فوجدوا عنده ما لم يجدوا عند أحد منهم في كل الأبواب نفاذاً وعلماً بارعاً فلزموه وتركوا سواه .

وجاء إسماعيل بن حماد نفسه وإخوانه وجلسوا من النعمان مجلس النعمان معهم من قبل من حماد . ولم يزل الناس يختلفون إليه حتى تخرج على يده من تخرج من التلاميذ واستحكّم أمره واحتاج الولاة إليه وذكره الخلفاء وجعل الأمر يزداد علواً ، وغدت حلقة أعظم حلقة بالمسجد وأوسعها في الجواب وانصرفت وجوه الناس إليه وأكر الحكام والأشراف . فقوى ذلك بالعلم الواسع والحدة ، وأسعدته المقادير، وكثر حساده .

وظلت في نفسه ذكريات حماد يرددها مشيداً بندها على الناس وجدواه عنده وتقواه لله حتى ليقول : « إني لأدعو لحماد مع أبوي » . بل إنه ليخلد ذكره في نفسه وفي داره فيسمى ابنه باسم حماد ثم تخلده الدار بدورها فيسمى ابنه حماد ولده باسم إسماعيل كما كان لحماد ولد اسمه إسماعيل .

ذلك حماد أستاذه في الفقه ، وأبوه في الفكر ، وأولئك آباء حماد الفكريون :

كان حماد تلميذاً لعلية الأستاذين . جرى اسمه في التاريخ على أنه راوية إبراهيم النخعي . وناهيك بإبراهيم من رجل عظيم قال عنه الشعبي عندما نعى إليه : « هلك الرجل .. إنه نشأ في أهل بيت فآخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته فمن كان مثله . . » وقال : « دفنتم أفقه الناس . قيل ومن الحسن (الحسن البصرى) ؟ قال : « أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل

الكوفة وأهل الحجاز» . فلما قد كان في الواقع حلقة الاتصال بين فقه الأقدمين وفقه المحدثين - أخذ عن خاله علقمة بن قيس الذي كان الصحابة يستفتونه والذي قال عنه ابن عباس إذ مات: « مات رباني العلم » كما أخذ عن ابن أخي علقمة الأسود بن يزيد النخعي ، وهذان النخعيان أخذنا عن أستاذ الكوفة الأكبر عبد الله بن مسعود ، سادس ستة أسلموا وأحد المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، وقمرين أبي بكر وعثمان وعمر وعلي ، وصاحب النبي الذي قال فيه : « من سره أن يقرأ القرآن غضباً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » والذي كان أخا في الفكر والرأى لعمر بن الخطاب . قال عنه أبو موسى الأشعري: « لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم » . ولما أرسله عمر إلى أهل الكوفة بعث إليهم يقول : « إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا برأيهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » وقدر لعمار ومساعديه ٦٠٠ درهم في الشهر ! ولعبد الله بن مسعود ١٠٠ درهم لتعليمه الناس وقيامه على بيت المال .

وبنى الوزير المعلم بيته بجوار بيت الله . حيث قضى أبو حنيفة فيما بعد أحفل أيام حياته وجرى في خلده وفي منهاجه منهج هذا المسلم السادس أو المعلم الأول للكوفة ، إذا أبيع لنا أن نستعير هذا التعبير العربي عن أرسطو . وبهذا تستبين صلة أبي حنيفة بالصحابة المقربين وبالإسلام عندما نشأ الإسلام .

سأل الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف فصوره له في إحدى جوامع الكلم قال : « . . قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، كان علمي به أنه شديد الذنب عن الحارم شديد الورع أن ينطق في دين الله تعالى بلا علم يجب أن يطاع الله تعالى ، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم ، طويل الصمت دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب ، وإلا قاس مستغنياً عن الناس ، لا يميل إلى طمع ، ولا يذكر الناس إلا بخير . » قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، وأمر الكاتب فكتبها ثم أعطاها لابنه وقال : احفظها .

كانت قرة عينه في الصلاة طول الليل يتعبد ويتهجد ويصلي ويبكي ويدعو ربه قائلاً : « رب ارحمني يوم يبعث عبادك ، وفقى عذابك ، واغفر ذنوبي يوم

يقوم الأشهاد . ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة ، ختمة في بياض النهار وختمة في سواد الليل ، ولطالما ذاعت في الناس أحاديث تهواه ، فتميل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في الليل ، وقيل إنه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

سئل عنه جاره له شيعي فقال : « لا يمنعني خلافي إياه أن أقول فيه الحق ، إنه بلخارى منذ أربعين سنة ما بيني وبينه إلا حائط ، ما كان يصبح كل ليلة إلا بسبع من القرآن بدعاء كثير وبكاء كثير » .

ولكثرة قيامه بالليل وتهجده سمي الوتد . . . روى مسعر بن كدام أنه أتاه في مسجده ستة أشهر ، فما رآه صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة .
كان إذا أراد أن يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته ، مؤثراً أن يسجد لله وهو في زينته ، ولو كان مستخفياً في الظلام .

وكان لديه ثوب قيمته ألف وخمسمائة درهم يلبسه في بعض الأحيان إذ يتزع لباسه الذي يكون عليه والناس نيام ، ثم يتعطر ويقوم إلى الصلاة ، فتقبل له إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطاناً أو اجتمعوا في مجمع عظيم فقال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

ولما ختم ولده حماد سورة الفاتحة احتفل به أعظم احتفال ، فأعطى المعلم خمسمائة درهم ، أو ألف درهم ، واستكثر المعلم هذا السخاء إذ هو لم يعلمه من الكتاب إلا فاتحة الكتاب فقال له : « لا تستحقر ما علمت ولدي . لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن » .

•••

كان جم الوفاء لجيرته وعشيرته يسهر الليل نشوان بذكر الله وفي جوار داره إسكاف يجي الليل متشياً بلذات الشراب ، يعمل طول النهار حتى إذا جن الليل حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشاها ، فإذا دارت رأسه علا حسه ورن جرسه ، بشعر الشاعر :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا	ليوم كرهية وسداد نغر
كأنى لم أكن فيهم وسيطا	ولم تك نسبتى في آل عمرو
أجـ رنى الخـمـع كل يوم	فيا لله مظلمتى وصبرى

وذات مساء فقد البحار المتعبد جاره المربرد وقيل له إن العسس اقتادوه إلى السجن منذ ليال ، فصلى الفجر من الغد ودعا بسواده وقلنسوته الطويلة فلبسهما وركب بغلته وقصد إلى دار الأمير - عيسى بن موسى - يسأله المغفرة للجار اللصق . فأكرم الأمير مثواه وأطلق سراح كل من أخذه الشرط من تلك الليلة إلى ذلك اليوم . وقفل الرجلان راجعين ، هو إلى داره والإسكاف إلى جواره . قال لصاحبه وهو يحاوره : يا فتى : هل أضعناك ؟ فأجاب قائلاً : بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً . كان ذلك الصنيع لفتة بارعة تاب بعدها الفتى عن شرابه ولزم الحلقة حتى صار فقيهاً من فقهاء الكوفة .

فلا تتساءل كيف جشم رجل الفقه نفسه تلك الرحلة في طلب العفو عن سكير . فالجواب في السؤال : أنه رجل الفقه الذى لا يتحرك في قوالب من الجبس ، أو في مقامع من حديد ، لأنه صاحب الفقه الحى والطبع الأريحي الذى لا يضيع جاره ، فهدى نفسه كانت ترتع في الفساد . وحسبك هذه النهاية لتحتفل بها عن البداية . وقديماً صنع مثله سعد بن أبي وقاص فاتح العراق في صقع قريب من أصقاع العراق يوم القادسية ، يوم شرب أبو محجن الصحابي الخمر فخبسه سعد وجرى به ليقام عليه الحد . فلما التى الجمعان ناحت نفسه كنواح الحمام :

كفى حزناً أن تطرد الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا

فقال لامرأة سعد أطلقيني ولك - والله - إن سلمنى الله أن أرجع حتى أضع رجلى في القيد . فقبلت السيدة عهده وحلت قيده . فوثب على البلقاء ، فرس الأمير ، وأطلق لها العنان بين الصفوف فبهر الجيش ، وخب لب القائد ، حتى خالوه ملكاً من الملائكة المسومين أنزله الله لنصرة دينه . فخلى سعد سبيله وآلى ألا يقيم عليه الحد من أجل بلاء بدت فيه التوبة الكاملة بإسلامه نفسه في سبيل الله .

وكانت لمسة مباركة تاب من بعدها أبو محجن عن الخمر فقال للأمير : « كنت أشربها إذ يقام على الحد وأطهر منها فأما إذ بهرجتى - أهدرتنى بإسقاط الحد - فوالله لا أشربها أبداً » .

كان أبو حنيفة إذا جمع المال تسابقت كفاه في تفريقه .. ذلك تلميذ يسد خلته ، وتلك امرأة ذات خصاصة ، وهذا فقيه في أسوأ حال . إن مال أبي حنيفة

إن لم يكن لهؤلاء وأشباههم فلا كان المال ، وإذا أنفق أبو حنيفة على عياله نفقة فليتصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً فليكس بمثل ثمنه الشيوخ والعلماء . أصابت رجلاً من الأغنياء فادحة أثقلته فجعل يتجلد حتى عضه الجوع ومسه الضر وشكت له امرأته جوعها وجوع صغيرتها ، أن أجلب الفناء وصفر الإناء فمس كبه من ذلك كبد . وخرج على عزم السؤال . وقصد إلى مجلس أبي حنيفة حيث جلس ملياً تقيمه الحاجة ويقعده الحياء . ثم انفض المجلس عن أهله وتفرقوا وخرج الرجل دون أن يبدي من أمره ما أخفى ، وعاد إلى داره . وكان أبو حنيفة قد قرأ في وجهه أشياء تجرى دلائلها بين قسامته ، فاتبعه حتى دخل الرجل داره ، ولما جن الليل جعل أبو حنيفة في كفه خمسة آلاف درهم ودق الباب وقال : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هولك » . ورجع مسرعاً لثلا يرى ذل الأخذ في وجهه ، وأخذ الرجل الصرة وهو يأبى أن يحمل عقدها خشية أن تكون صدقة ذمى - فلقد كان الذميون يتألفون قلوب الناس في تلك الأيام بالأعطيات - ولكن زوجته أهابت به « حل عقدها لعل الله يحمل عقدها » .. فلما حلها قرأ كلمة أبي حنيفة : « هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال فليفرغ بالك .. »

وحبس إبراهيم بن عيينة - أخو سفيان بن عيينة المحدث - على أكثر من أربعة آلاف درهم فهم أصحابه بأن يجمعوا له اكتاباً . فلما صاروا إلى أبي حنيفة أمر برد ما أخذوه من الناس وقضى عن المدين دينه .

جاء رجل فقال إن على لفلان مائة درهم وأنا مضيق فسله يصبر غنى ، ويؤخرني بها فكلم أبو حنيفة صاحب المال فقال صاحب المال : هي له أبرأته منها ، قال الذي عليه الدين ، لا حاجة لي فيها . قال أبو حنيفة : « ليست الحاجة لك ، وإنما الحاجة لي قضيت » .

تلك صدقات ونفحات في المناسبات . لكن العطاء كان يجري جريان الزمان في كل الأيام ، إذ يأمر ولده حماداً بأن يشتري في كل يوم بعشرة دراهم خبزاً يتصلق به على جيرانه ، وعلى كل من يختلف إلى بابه ، وكان يجري على الكثير من أصحابه جارية في كل شهر عدا ما كان يواسيهم به في عامة الأيام .

وتناهى به التجرد عن المادة ، فكان يخرج عن كل ماله للمعوزين . لا يخاف

عيلة، ولا يستبقى لداره ولا لأهله إلا قدر نفقتهم، والباقي كله طعام البائس والمعتر ..
وفي ذلك يقول : « ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من أربعين سنة
إلا أخرجته وإنما أمسكها لقول على رضى الله عنه ، أربعة آلاف فادونها نفقة ،
وأولا أتى أخاف أن أبلأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً » .

وسترى كيف كان ثراؤه عريضاً لترى كيف كان سخاؤه عجبياً ، بل لترى
كيف كان إداره عن الدنيا مصدرراً للقوة في ذاته وأثرأ لها في نفس الوقت ، كالتقوى
تولد القوى فتتولد منها: وسترى كيف أخضعت له هذه القوة العالم في حياته وبعد
مئاته فبلغ في الدنيا وفي الآخرة ما شاء بل ما شاءت له السماء .

ثم إنك لترى الأريحية كلها إذ يهدى إليه : أهدى إليه مندبل قيمته ثلاثة
دراهم فعوض المهدي قطعة خز قيمتها خمسون درهماً . وجاءته هدية من الفاكهة
فبعث إلى المهدي متاعاً مرتفعاً كثير القيمة .

وأهدى إليه يوماً ألف نعل ففرقها على إخوانه، ورؤى بعد ذلك بيومين يشترى
لولده نعلا . . . فلما سئل في ذلك قال : « إن مذهبي في الهدايا تقويمها بالغة
ما بلغت . والمكافأة بمثلها أو مثل ضعفها، وتفريق الهدية بين إخواني . لما قد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أهدى إلى الرجل فجلساؤه شركاؤه ،
وإخواني جلسائي فلا أحب أن أنفرد دونهم بل أرى أن أجعل نصيبي لهم . . .
وأرى قبول الهدية كما قال الله تعالى : (خُذْ الْعَقْدُوْ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) ، ولما روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل الهدية ويحيب الدعوة . وأرى المكافأة
بأحسن منها لقوله تعالى : (وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا) ، ولقوله
تعالى : (وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) .

وأهدى إليه مرة فكافأ المهدي بأضعاف ما أهدى إليه . قال الرجل : لو علمت
أنك تفعل ذلك ما أهديت إليك . قال : « لا تقل هذا فإن الفضل للسابق ، ألم
تسمع إلى ما حدثني به الهيثم عن أبي صالح يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال :
من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فأتوا عليه . . . » .

بلى . . . فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ! . .

رأى على أحد جلسائه سنجابياً فلما هم بالخروج قال له : ناولنى هذا السنجاب فتناوله وقال : ما أطرفه . وطلب من صاحبه بيعه فسر صاحب السنجاب أن أعجب الأستاذ بالسنجاب . لكن الأستاذ سأل عن الثمن فأجاب : سبحان الله أبيعك لك ! هولى هبة منى وتذكرة . قال الأستاذ إن بعته منى بقيمته وإلا فلا حاجة لى فى الهبة ، فإن بعته منى بقيمته كان أعجب لى وأفعل . ذلك لأنى محتاج إليه . وأبى الرجل وأبى الأستاذ . فقومه بعض الحضور واشتراه أبو حنيفة .

وهو أرحب الناس صدرأ بالأذى والسفاهة . كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب . وأن السبيل إلى الظفر بمحلمة هذه الأسلحة هى تجريدهم منها ، بالحلم وبالصبر . كان فى المسجد فقام رجل فى ناحية فجعل يسبه فما قطع حديثه ، وقام إلى داره ، فنبهه الرجل يشتم ويصيح حتى إذا بلغ داره قام عند الباب واستقبل الرجل بوجهه قائلاً : « هذه دارى أريد الدخول فإن كنت تستم باقى كلامك فأتمه حتى لا يبق شىء مما عندك حتى لا تخاف الفتوت » فاستحى الرجل ، وقال : اجعلنى فى حل . قال : أنت فى حل .

وقديماً كان فى مهين يسلق بركليس بالسنة حداد على ملأ من الناس فظل الرجل العظيم فى عمله لا يلتى إليه بالا حتى أوت الشمس إلى الغروب فسار إلى منزله ، والفتى على أثره يردد سبابه ، فلما دخل بركليس بعث خادماً يحمل المصباح لينير للفتى طريق عودته إلى داره .

وهذه أمه يبجلها ويدللها ، كانت كبعض الأمهات وبعض العشيرة تكاد تعشى عينها فى سنا الكوكب الذى يغمر الدنيا ضياؤه ! لا تتق بالفتيا إلا إذا جاءتها واردة من الخارج . . . !

حلفت يمينا واستفتته فأفتاها ، فلم ترض عما أفتى فتاها ، وأبت إلا أن يفتيها زرة القاص « الواعظ » . فلم يضق ذرعاً ، وحملها إلى دار زرة ، وهنالك قال لها صاحب الدار : أفتيك ومعك فقيه الكوفة . . ! ولو انكشف أمامه لوح المستقبل لقال فقيه الدنيا .

وأمر أبو حنيفة لزرة أفتها بكذا ، فأفتاها .

بل كان يحملها إلى دار عمر بن ذر على ما كان بين الدارين من بعد الشقة
« ثلاثة أميال » ليصليا التراويح خلفه وليستمعوا إلى وعظ هذا الزاهد الجليل .
وليدعوا الله كما يدعو « أتعذبنا يارب وفي جوفنا التوحيد . لا أراك تفعل » وهو دعاء
يؤتم قاعده أبي حنيفة في الإيمان كما سترى بعد . فأى رقة تفيض من هذا القلب
الكبير ! وأى دار كنتك الدار تشيع في أجوائها الزهادة والتبتل والإيمان . وأى ذوق
كذلك الذى يتلمس على هذا النحو رضا السيدة التى حملته وأرضعته وقدمته هدية
فاخرة للوجود .

ولما أوجعته الشياطين وهو فى قمة المجد ، معنى بالنكال الذى يصبه عليه ملوك
الأرض ، لم يكذب يفتح فاه بالكلام إلى جاره إلا ليقول عن أمه : « والله ما أوجعتنى
الشياطين قدر ما آلتنى دموعها » وقالت له أمه : ما خير علم يضبعك هذا الضياع .
قال : يا أماه إنهم يريدوننى على الدنيا ، وإننى أريد الآخرة ، وإننى أختار
عذابهم على عذاب الله .

قال نابتة الأدب الدينى فى فرنسا « بوسويه » فى رثاء عبقرى الفن الحربى
« كونديه » : « ألا بعداً لأولئك الأبطال الذين لا إنسانية فيهم ! إنهم قد يستحقون
احترامنا وإعجابنا ككل ما هو خارق للطبيعة لكن قلوبنا ليست معهم . . . »

* * *

فى أى سلك من الرجال يسلك هذا السيد الرفيع الطراز ؟ لو كان فى الإسلام
أرستقراطيات وطبقات لكان مكانه فى الذروة العليا من الطبقة العليا خلقاً وخلقاً ،
سمتاً ونطقاً . صلة بالناس وصلته بالله .

كل أولئك ثم هذا نسبة العلمى الذى يسموه إلى السابقين من أصحاب النبى .
فقيم إذن أجهد الأشياع والأتباع أنفسهم ليخلقوا له نسباً غير أنساب الموالى ،
ويزيفوا له من مسميات الغرور أنه سليل الملوك ، وأن اسمه أو معناه ورد فى
التوراة ، وأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بشر بقدمه ؟

إنما يتفاضل الناس بالأحلام لا بالأرحام ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط
وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وهم سواء فى الحجج وفى الصلاة وفى الزكاة ، وفى
الجنائيات ، عين بعين وسن بسن ، والجروح قصاص .

سوى النبى بين نفسه وبين مولاة زيد ، وأمر أسامة بن زيد على الجيش وهو

حدث، وفي الجيش أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم . فلما بويع لأبي بكر قبل مسير الجيش كلم أبو بكر خليفة اليوم أسامة في عمر خليفة الغد، ليأذن له في التخلف ففعل . وظل عمر يناديه كلما لقيه : السلام عليك أيها الأمير . ويقول : « إني لا أدعوك إلا به لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأنت على أمير » .

ولما شرع عمر يستخلف قال : لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته .
في تلك الأمة التي لا تعرف شريفاً ومشروفاً نهض الموالى بأفدح الأعباء في الحرب والسياسة وفي العلم والفقهاء .

في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاة عكرمة ، وظل عكرمة رقيقاً حتى مات ابن عباس فباعه ولده عليّ بأربعة آلاف دينار . فقال لعلی : « بعث علم أبيك بأربعة آلاف دينار » ! فاستقال عليّ من بيعه وأعتقه !

وكان عبد الله بن عمر كثيراً ما يذكر ومعه مولاة نافع ، وأنس بن مالك لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاة ابن سيرين ، وأبو هريرة لا يكاد يذكر إلا ومعه مولاة عبد الرحمن بن هرمز !

بل كانت دولة الفقه للموالى في بعض الأمصار ، كالبصرة حيث كان علي رأسهم الحسن البصرى ، وفي مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاووس بن كيسان وكثيرون من الموالى .

وفي سوق الفخار هذه علا صوت السودان ، فتولى الفتيا بمصر يزيد بن أبي حبيب بأمر عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد مولى للأزد أبوه من دنقلة ، وهو الذي تعلم عليه إمام مصر العظيم الليث بن سعد .

ثم من هم الموالى؟ الموالى هم القوم المنتسبون إلى بيوت العرب بعقد ولاء ، ومنهم الأرقاء ومنهم غير الأرقاء ، وكانوا في الأغلب الأعم من أهل البلاد المفتوحة ك مصر وفارس وبلاد الروم . وكان العرب يستطيعون أن يملكوهم بحق الفتح ، لكنهم تركوهم أحراراً ، وجرت كلمة الموالى في إطلاقها على أن تشمل من ليسوا عربياً من أهل هذه البلدان ، لأنهم كانوا يسمون على أيدي المسلمين ، فن أسلم على يد

مسلم كان مولاه ، وكثيرون منهم أسروا أطفالا رباهم المسلمون وعلموهم وغدوا مواليتهم . ولم يك بدعاً أن يظهر الفقه والعلم على يد أهل هذه البلدان المفتوحة : فيقال إن الفقه بعد موت العبادلة الأربعة - أبناء عباس وعمر وعمر و الزبير - قد انتقل إلى الموالى ، إذ كان الموالى أهل حضارة رفيعة لم يمسخها الغزو ، لأنه لم يك غزواً بربرياً ، وإنما كان غزواً فكرياً ، فتح الله به على المسلمين ، وعلى أهل البلدان المفتوحة، فأنزل رحمته عليهم فى شريعته إلهيم . وانداحت مع الموجة الفاتحة موجة من الإيمان غدت من بعد تياراً من التفتح الذهني أخرج للأمم ما أخرجت من الآيات: وكان الفقه أول ما أخرجت لأنه فى الواقع هو الدين نفسه، أو القدر الأوفى من الدين: وتلاقى العاملان، وتبادل المتبادلان، ففتح العرب الشعوب المغزوة دينهم قيماً، ولغتهم فصيحى، وقلم الموالى من جانبهم أسباب حضارات فاخرة، وأصول تفكير عميقة . واشتاع الشريكان أبد الدهر ، فازدوجا ثم اندمجا . وتضافرت القوى الإسلامية على الإنتاج تضافر القوى عند التلقيح لتخرج أنواعاً قوية جديدة الطراز .

• • •

وإذا كان ثمة وقائع تشير إلى النفرة بين العرب والموالى فقد صارت حديثاً فى التاريخ بعد أن توج الأزواج بالاندماج .

سأل هشام بن عبد الملك جليسه فى فاتحة القرن الثانى : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين .

قال : فن فقيه أهل المدينة ؟ قال : « نافع مولى ابن عمر » .

قال : فن فقيه أهل مكة ؟ قال : « عطاء بن أبى رباح » .

قال : مولى أم عربى : قال : مولى !

قال : فن فقيه أهل اليمن ؟ قال : « طاووس بن كيسان » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فن فقيه أهل اليمامة ؟ قال : « يحيى بن أبى كثير » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فن فقيه أهل الشام ؟ قال : « مكحول » .

قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى !

قال : فن فقيه أهل الجزيرة ؟ قال : « ميمون بن مهران » .

قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !
قال : فن فقيه أهل خراسان ؟ قال : « الضحاك بن مزاحم » .
قال : مولى أم عربي ؟ قال : مولى !
قال : فن فقيه أهل البصرة ؟ قال : « الحسن وابن سيرين » .
قال : موليان أم عربيان ؟ قال : موليان !
قال : فن فقيه أهل الكوفة ؟ قال : « إبراهيم النخعي » .
قال : مولى أم عربي ؟ قال : لا بل عربي !
قال : كادت نفسى تخرج ولا تقول واحد عربي !
قال ذلك هشام وقد طبع على قلبه التعصب لأعرافه ، لكن الخليفة الذى كان
فى طليعة من حملوا ميزان المعدلة فى الإسلام قال غيره . . فلما سمع عمر بن
عبد العزيز أن بعض الناس أنفوا أن تكون الفتيا للموالى صاح فيهم : (ما ذنبى إن
كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون ؟) .
والذى قاله عمر قاله صاحب الشريعة من قبل لأهله : « لا يجيئنى الناس
بالأعمال وتجيئونى بالأنساب (إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ) » .
وقف رجلان مولى وعربى على مجلس لبني العنبر . والعربى على حمار والمولى على
ناقة ، وكان المولى يقرأ ويكتب ، والعربى لا يقرأ ولا يكتب . فلما سلما على القوم
قاموا فسلموا على المولى ثم عادوا إلى العربى ، فقبض يده عنهم وقال : لا ولا كرامة !
بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمولى قبل العربى فاسكتوا ، فانبرى واحد منهم فقال
له : بدأنا بالكاتب قبل الأمى وبالمهاجر قبل الأعرابى وبراكب الراحلة قبل راكب
الحمار .
هذان روحا هشام وعمر ، وهذا الجواب الأخير هو النظر الذى ينظر به الإسلام
إلى عنصرى كيانه قد أنطق الله به فتى بنى العنبر .
كان الموالى هم الذين حملت مناكبهم عمد الدولة العباسية حتى استقرت بها
الأسباب . والأولى ترجموا ، وألقوا ، ولقحوا الحضارة العربية بلقاح القوم ،
واليونان ، والنبطيين والكلدانيين ، والآشوريين ، والبابليين ، والروم ، والهنود ،
وغيرهم ، فصيروا الحضارة الجديدة حضارة إسلامية جامعة .

وفي العهد العباسي كان مفخرة للرجل أن يكون من الموالى . كان عمارة بن حمزة بعيد الصوت في بلاط المهدي ، فدخل عليه يوماً فأعظمه فقال رجال من القرشيين : من هذا الذي أعظمته الإعظام كله . قال عمارة بن حمزة مولاي . فسمعها عمارة فرجع يقول : يا أمير المؤمنين جعلتني كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبد الله بن عباس ليعرف الناس مكاني ؟ وهؤلاء طائفة من الغزاة والملوك : كافور - الأسود الزنجي كما يقول المتنبي - وأبو المسك - كما يناديه أيضاً - كان (الملك الأستاذ) كما سماه المتنبي كذلك ، وطارق بن زياد مولى مومى بن نصير ، ومومى نفسه مولى عبد العزيز بن مروان : هذان الموليان اللذان يقصر دون مجدهما كل مجد السادة ، هما اللذان منحوا الإنسانية حضارة الأندلس فوصلا الشرق بالغرب وجمعا طرفي التاريخ قديمه وحديثه . ولو طال بنا السرد لبرزت أسماء الموالى على أنها زين أعلام التاريخ الإسلامي وحروف هجاء في آيات فخاره .

بل هؤلاء بنو تيم الله بن ثعلبة موالى أبي حنيفة وأبيه ، لقد صار لهم شأن بأنهم موالى ذلك الذي سعدت به الدنيا فوضعهم في التاريخ حيث يوضع .
فلا تسل إذن عن ثابت والد النعمان ولا عن جده زوطى فكلاهما فخار ولدهما إذ يقال إنهما موليان ، وفتاهما فخار هذه الأمة الإسلامية على الزمان ، بل قل لثابت ولزوطى ولكل من حاول أن يغض من نسبهما مقاله المتنبي بلجته :
ولو لم تكوئي بنت أكرم والد فإن أباك الضخم كونك لى أما

• • •

إن هذه الشريعة لتباهى بطائفة من أنبغ علمائها بزغت نجومهم أو وفدت أصولهم من خارج بلاد العرب . ولئن ساغ ذلك النبوغ في السياسة أو في القيادة أو في الفن ، فإنه في الفقه ، وللهولة الأولى ، يستوقف النظر ، وبخاصة في فجر الإسلام . ففي الفقه نصوص القرآن والأحاديث والسنن . فكيف تتمثل النفوس الوافدة من بعيد خصائص الأمة العربية في سهولة ويسر وسرعة فتحفظ كتابها وتدرك أسرار لغتها حتى تبرز الخالص من بينها !

هؤلاء الموالى اللذين أسلفنا المقالة فيهم . وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته

يقولون نحن من الفرس من أصبهان ، والطبري من آمل بطبرستان ، وابن جرير روى المنتب ، وربيعه الرأي فارسي الأصل ، والشعبي علامة التابعين كانت أمه من سبي جلواء ، والحسن البصري كان أبوه من سبي ميسان ، واو عمدنا إلى الحصر لشمّل الكثرة الغالبة من أئمة الفقه والعلم ، ولكننا نقتصر على بعض الأمثال . بل ان اللغة نفسها قد سعدت بالموالى مثلما سعدت بأربابها ، هذا عبد الحميد بن يحيى الذى قيل عنه : « ابتدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » كان من الموالى ، وهذا سيويه يضع قواعد النحو ! والكسافى وارث علماء البصرة ، وتلميذه الفراء كان دليماً كهيار ، وابن مسكويه وابن سينا والقاراني كانوا موالى أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع سيد النقلة إلى العربية . . وهو أول من أشار بتجميع الفقه وما يزال تجميع القوانين الشرعية إلى اليوم أمنية رجل القانون .

نزل الوحي في شبه الجزيرة كالغيث ، وسال من قممها إلى الوديان الإسلامية طراً حيث قرقراره ، واحتمل السيل في فيضانه تلك المدنية الراقية لا تقفها الحدود ولا السدود ، فشرقت فغمرت بطاح آسيا ، وغربت لتصب في المحيط الأطلسي . بدأ العراق نهضة اللغة بالبصرة واكتملت فيه نهضة الفقه بالكوفة ، ثم تآلى اللواء في مصر جامع عمرو ، والأزهر الأغر ، فأبقى الجامع العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا في القرن الرابع عشر وإلى كل القرون .

إن هذا الدين متين كلما أوغل الداخل فيه اشتملته فيوض النور ، فخلبت له قواعد المجتمع ، ونظم الأسرة والأهلية والأخلاق العامة والزكاة ، والصلة اليومية المتعددة بالله باسم الصلاة ، والمؤتمر السنوى العام إلى جوار بيت الله الحرام ، والمؤتمر الأسبوعي الخاص في يوم الجمعة في كل مكان ، وحرمات البيوت وحقوق المعاملات ، والتعاون ، وأخلاق السلم والحرب ومساواة المرأة بالرجل ومساواة المسلم بالمسلم ، ذلك وما إليه من خصائص الإسلام يأسر من فؤاد الباحث بقدر إيمانه ، وكلما تغلغل فيه اختلطت كفاياته بأصول الدين فاستحالت عجباً .

بهذا تمثلت الشريعة الإسلامية الملل والنحل الشتى فصارت أمة واحدة هي الإسلام ، لا فضل فيها لعربي على أعجمي ، وإنما الفضل بالتقوى .

ولئن كانت النعرة العربية قد استبدت بهشام بن عبد الملك ، فإنما هي جاهلية ذمها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاضمها بأبائها ، فالناس رجالان برتقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله ، والناس بنو آدم .. » ولقد فات أمير المؤمنين أن المؤمنين موال وعرب ، وأن الإسلام للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها . وأن نبوغ التوايغ من أفنان الدولة إنما هو أفخر التحايا للدين الجديد في مطلع سعده وفاتحة عهده ، أن أدبهم فأحسن تأديبهم .

وفاته أن جزيرة العرب قد سبقت فاحتفظت بكل شيء . ولم تكذب تبقئ للناس من دونها شيئاً .

فاته أنها أخرجت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وحسبها هو . . . ولو أنه ليس لها وإنما هو للعالم جميعاً . .

لقد اعتز الإسلام بأهل البلاد المفتوحة ، وتألفت في سماواته حضارة دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والقسطنطينية وأمثالها ، لكن مركز الثقل كان دائماً في وسط الجزيرة . وحيثما كان المسلمون وأوا وجوههم شطره ، مبتهلين إلى صاحب البيت العتيق بمكة ، مصلين على صاحب القبر الشريف بالمدينة .